المحاضرة الثالثة: نصوص من خطب صدر الإسلام

خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع [1]

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ،ومن سيئات أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد، أن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله، بتقوى الله، وأحثكم على طاعة رسوله. أوصيكم عباد الله، بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد: أيها الناس، اِسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا! أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت، اللهم اشهد!

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى الذي اِئتمنه عليها؛ وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب؛ وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السّدانة والسقاية، والعمد قَوَد وشِبه العمد ما قتل بالعصَا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس، إنما النَّسيءُ. زيادة في الكفر يُضلُّ به الذين كفروا يُحلّوُنَه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدَّة ما حرّم الله. وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض؛ وإنَّ عدّة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض،ً ، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرّم، ورجب الذي بين جماد وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم اشهد!

---

[1] – أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد تحقيق عبد المجيد الترحيني، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص147، 148، 149.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهنّ حقا: لكم عليهنّ أن لا يوطئن فرُشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة؛ فإن فعلن فإن قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرَّح؛ فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف؛ وإنما النساء عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله؛ فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً [ألا هل بلّغت، اللهم اشهد!]

أيها الناس؛ إنما المؤمنون إخوة؛ ولا يحل لأمرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه؛ فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلّوا [بعده] كتاب الله وأهل بيتي، ألا هل بلغت اللهم اشهد.

أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد؛ كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم؛ ليس لعربيّ على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قسم لكل وارثٍ نصيبه من الميراث؛ ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثُلث؛ والولد للفراش وللعاهر الحجر من دُعيَ إلى غير أبيه، أو تولَّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيَّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له خازنا وقاسما: إني بادئ بأزواج رسول الله ﷺ فمطيعهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابي ثم بالأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته. إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي، فابتُليت بكم وابتليتم بي، وإني لن يحضرني من أموركم شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة فلئن أحسنوا لأُحْسننَّ إليهم، ولئن أساؤوا لأُنكلنَّ بهم.[2]

---

[2] – أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد تحقيق عبد المجيد الترحيني، ص153.

خطبة الإمام علي رضي الله عنه في الحث على الجهاد دراسة تطبيقية:[3]

أغار سفيان بن عوف الغامدي بخيل معاوية على الأنبار بالعراق، وكانت تابعة للإمام علي رضي الله عنه فقتل عامله عليها، واسمه حسان البكري، ثم دخل الجند الدُّور، فنهبوا حُلي النساء، دون أن يلقوا مقاومة تذكر. وإذ بلغ الخبر الإمام علي رضي الله عنه، خرج غاضبا وألقى هذه الخطبة في أهل الكوفة:

01- نص الخطبة:

أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنَّته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، ودُيِّث بالصغار والقماءة، وضُرب على قلبه بالأسداد، وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف ومنع النّصف.

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسراً وإعلانا وقلت لكم: اِغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت عليكم الغارات ومُلِّكت عليكم الأوطان.

هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن معاقلها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حِجلها وقُلبها وقلائدها ورعاثها، ما تُمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ثم انصرفوا وافرين، وما نال رجلا منهم كَلْمٌ، ولا أُريق لهم دم. فلو أن أمرا مسلما مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوما بل كان عندي به جديراً.

فيا عجب والله يميت القلب، ويجلب الهم، من اجتماع هؤلاء على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضون.

---

[3] – ينظر: سامي يوسف أبو زيد، تذوق النص الأدبي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2012، ص180، 181، 182، 183، 184، 185.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف، قلتم: هذه حمَّارة القيظ أمهلنا ينسلخُ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبَّارة القُرِّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحر والقُّر، فأنتم والله من السيف أفرّ.

يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال لو وددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفةُ والله جرّت ندماً، وأعقبت سدَماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيضاً، وجرعتموني نُغب التهام أنفاسا، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم!! وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً، وأقدم فيها مقاما مني؟ لقد نهضت بها وما بلغتُ العشرين، وها أنا قد ذرّفْتُ على الستين ولكن لا رأي لمن لا يُطاع.

02- تحليل الخطبة:

أولا: بنية النص ومساره

قامت الخطبة على مقدمة وعرض وخاتمة.

تضمنت المقدمة فكرتين رئيستين؛ الترغيب في الجهاد بوصفه بابا من أبواب الجنة فتحه الله لأوليائه، والترهيب من ترك الجهاد بذكر العواقب الوخيمة التي تنجم عن ذلك من ذل ومهانة وظلم.

وهو بهذه المقدمة يمهد لموضوعه ويبيّن مكانة الجهاد في سبيل الله.

ويأتي العرض متضمنا الأفكار الآتية:

تذكير أهل الكوفة بأنه قد دعاهم إلى القتال قبل أن تباغتهم الخيل، وكيف أنهم تقاعسوا حتى هاجمهم العدو في عقر دارهم.

إظهار الأسف والعجب لحال أصحابه الذين أصبحوا في وضع مخجل، فأين هم من عدوهم.

- إعلان نقمته على أهل الكوفة على مستويين:

- فضح موقفهم وقعودهم عن الجهاد، وتعللهم بأوهى الأعذار، كالحر والقرّ.
- توبيخ عنيف لهم، جراء العصيان والتخاذل؛ إذ يقول: يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال.

- إبداء غيظه ويأسه منهم، وظهر ذلك جليا في قوله:

قتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظا.

أما الخاتمة فتضمنت رداً على المشككين ببطولته، وجهله بأمور الحرب مع اعترافهم بأنه رجل شجاع مفنِّداً ذلك بالدليل والحجة: بأنه خاض الحروب وهو دون العشرين، وتقاعس أهل الكوفة وتمردهم على أوامره.

ثانيا: خصائص وأسلوبه:

تتضح خصائص الإمام علي الخطابية فيما يأتي:

- تدرجه في ألفاظه ومعانيه، فالخطبة تتطور ارتقائيا، من اللين إلى العنف، إذ بدأ هادئا نسبيا وهو يتحدث عن الجهاد وفضله، ثم اشتد حين تعرض لقصة أخ غامد حتى بلغ ذروة العنف حين رماهم بأوصاف النساء والأطفال.
- ظهور أثر الثقافة في الخطبة، الثقافة القرآنية والثقافة اللغوية والأدبية فمن الألفاظ القرآنية التي وردت: الجهاد، الجنة، فتحه الله، لباس التقوى، وتبدو ثقافته اللغوية في إنتقاء ألفاظ ذات وقع قوي ومؤثر مثال ذلك: دُيِّث بالقماءة، ضرب على قلبه بالأسداد، حمّارة القيظ، صبّارة القرّ، نُغب التهام ما ينمّ عن تضلِّعه لغويا وأسلوبيا.
- قدرة الإمام على إثارة النفوس بوسائل بلاغية مختلفة، فهو يثير النخوة حين يتحدث عن استباحة النساء وصراخهن، ويبعث حب الجهاد حين يذكر فضائله.
- توسل في أسلوبه بالقسم والنداء والتعجب والاستفهام والتمني والشرط وكلها أساليب بلاغية تخدم أغراض النص الخطابي.

فجاء القسم ليؤكد به معانيه في مثل قوله: فوالله ما غزي قوم...، فأنتم والله من السيف أفر، وبالنداء لأغراض بلاغية كالتعجب في قوله: فيا عجبا، أو للتحقير في مثل قوله:

يا أشباه الرجال، ويأتي الاستفهام في قوله: وهل من أحد أشد لها مراسا!! وقد أجراه مجرى بلاغيا أفاد به النفي، وبالتمني في قوله: لوددت أني لم أعرفكم، والشرط في قوله: فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل...

- المحسنات البديعية اعتمد فيها على جناس الاشتقاق: اغزوهم قبل أن يغزوكم – يُغار عليكم ولا تُغيرون – تُغزون ولا تَغزون. ومن الطباق بغرض توضيح المعنى وإجلائه قوله: ليلا ونهاراً، سراً وإعلانا، يُغار ولا تغيرون، تُغزون ولا تَغزون، ويأتي بالمقابلة أحيانا في مثل قوله: اجتماع هؤلاء على باطلهم ونفركم عن حقكم، حمارة القيظ وصبارة القر. وتأتي الصورة الفنية لتجسد أفكاره وتبوح بخواطره، حيث جسَّد التقوى في قوله :لباس التقوى، وجسّد الذل في قوله: ألبسه الله ثوب الذل، وجسّد الضلال في قوله: ضرب على قلبه بالأسداد وهذه الصور تنمّ عن تأثره بالقرآن الكريم وبراعته في الجمع بين الحسي والمعنوي.
- تميزت خطبة الإمام علي إيقاعيا بمقومات عدّة كالسجع والجناس وتوازن العبارات وهو ما يضمن تأثيرها في جمهور المستمعين ويأتي التكرار ليعمّق المعنى ويؤكده من خلال ترادف الألفاظ في مثل قوله: هو درع الله الحصينة، وجُنّته الوثيقة. فالجُنّة هي تكرار معنوي لفظي للدرع، والوثيقة هي تكرار للحصينة في معناها.

وكذلك في قوله: وألبسه ثوب الذل ودُيّث بالصغار والقماءة وانطوت ألفاظه (الذل والصغار والقماءة) على معنى واحد.